أثـــر الأيديولوجيات الدينية في الفكـر السّـياسي

د. محمد عبد الرحمــن الحنين ـ قسم علم الاجتماع . كلية التربية ـ جنزور . جامعة طرابلس

مقدّمـــة :

إنّ جميع الكتب السمــاوية سواء أكانت التوراة أم الإنجيل أم القران الكريم كرّمت الإنســان ، واعتبرته من أحسن المخلوقات على وجه الأرض ؛ ولكن بعض التفسيرات للدّين التي صدرت من بعض من ظنوا أنفسهم أنهم أوصياء على الدّيــن عـن دون الناس انحرفت أفهامهم عن الهدي الحقيقي له ، فجعلت من بعض نصوصه مظهرا للتعصب ، واستغلت تلك النصوص لتحقيق أهداف سياسية ، ومآرب شخصية.

والواقع أن أغلب أصحاب الأهـداف السياسية هم من وظفوا بعض نصوص الدّين لخدمة مصالحهم ، على الرغم من أن تعاليم الأديان - سيما الدين الإسلامي- تدعـــو إلى التشاور بين الناس ، وحرية الرأي ، يقول الله ـ تعالى- في كتابه العزيز **(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)**(1) ، فهذه الآية الكريمة تدعـو إلى عـدم فرض الفكر الواحد ، وإلى الالتزام بالـرأي الجماعي الذي يخدم الفرد والمجتمع.

والنظام السياسي في أي مجتمع لا يكون وفــق آراء جماعات تتستر بالإســلام ، وتسعى للحكم ، والمصالح الشخصية ؛ بل في عمومه ومبادئه ما هو إلا دعـوة لإصلاح المجتمع بمبادئ وقيم سامية ، فكل الأيدولوجيات الدينية التي تتميز بالتطرف لها أثر كبير في الحياة لسياسية ، وهي سبب الصراع بين المجتمعات، فقد اختلق أصحاب تلك الأيديولوجيات المتطرفة من الدّين أفكارا تخدم مصالحهم السياسية ، فمنهم من اتكأ على الترسيمات اليهودية ، ومنهم من اتكأ على فكرة الحـق الإلهي للملوك في أوربا ، كما أن فكرة الحاكمية وما تفرع عنها من أحزاب وحركات سياسية قامت على أساس أنه تمثل الدّين الإسلامي ، بينما في حقيقة الأمــر أن الإسلام بريء منها .

أهمية الدراســة :

تعد الأيديولوجيات الدينية المتطرفة ظاهرة من الظواهر الهدّامة التي تستوجب دراستها دراسة وصفية تحليلية لإظهار مدى أثــرها السلبي على المجتمع ، فالصراع

الأيديولوجي وهو استغلال بعض النصوص الدينية ، وتفسيرها على الطريقة التي تخدم المآرب الشخصية ، هو السبب الرئيسي للتفكك الاجتماعي ، والسياسي في مجتمعاتنا .

وفي عالمنا العربي والإسلامي نعيش واقعا مراً نلمسه من خلال ما نراه مــن تصرفات صدرت من بعض تلك الجماعات المتطرفة . لذا سنستعرض في هذا البحث أثر الإيديولوجيات الدينية في الانقسام السياسي والاجتماعي ، وهذا سيتم توضيحه من خــلال دراسة وتحليل عناصر الموضوع.

وفي الفكر السياسي المعاصر ثقافات وأيديولوجيات مختلفة تلبست باسم الدّين يمثلها أفراد أو جماعات لها مطامع سياسية ، وتسعى سعيا حثيثا للاستيلاء على السلطة والحكم ، ساعدها على تحقيق مآربها وجود الفراغ الثقافي في المجتمع، فاستغلته تلك الايديولوجيات لنشر أفكارها التي تروج لها ، كما ساعدها وجود الخلل الذي طرأ على العادات ، والتقاليد ، والقيم الاجتماعية نتيجة لامتزاج الثقافات المختلفة، فتلك الثقافات - خاصة الغربيّة منها- انتشرت عن طريق وسائل الإعــلام وغيرها من الوسائل بين المجتمعات ، فتسببت في وجود انقسامات ، داخل المجتمعات تحتاج إلى تظافر الجهود المكثفة لمعالجتها

تحديد المشكلـــة :

الأيديولوجيات الدّينية المعاصرة تظهر في كل فترة بمسمّى يختلف عن الآخــر، ولكن هدفها يكاد يكون واحداً وهو عدم استقرار المجتمع ، وخلق الصراعات بين فئاته ، وإذكاء نار الفتن بين أفراده ، وبهذا يمكن القول بأن الأيديولوجيا يتم من خلالها تحقيق الذات القومية ، والاشتراك في مجموعة من الأفكار ، وتحديد المفاهيم ، والمهام التي يجب انجازها، وعلى الرغم من جهود الكتاب والباحثين الذين كتبوا عن الأيديولوجيات الدينية وأثرها في الأفكار السياسية لدى أفراد المجتمع ، وما توصلوا إليه من نتائج حول هذا الموضوع ، فمازالت هذه الأيديولوجيات مواكبة للعصر ، فهي تظهر في كل فترة بمسمّى يختلف عن الآخــر.

أهــداف البحث :

تكمن أهداف البحث فيما يلي:

1- تحديد تاريخ ظهور مصطلح الأيديولوجيا ، ومعرفة مفهومها وفق آراء الباحثين والكتّاب.

2- الكشف عن أسباب ظهور الأيديولوجيات الدينية في المجتمع العربــي والإسلامي.

3- توضيح أثــر الأيديولوجية الدينية في الوضع الاجتماعي والسياسي لدى المجتمع

منهج الدراســة :

سلكت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي ؛ مستندا على أهــم المعلومات والبيانات من خلال المصادر والمراجع ذات العلاقة بموضوع الدراسة، فسأبين مــن خلال جمع المعلومات معنى الأيديولوجية لغة واصطلاحا ، ومعناها - أيضا - من المنظور الاجتماعي والسياسي - وأيضا - سأتطرق إلى ذكر بعض العوامل المرتبطة بالعناصر المهمة في هذا البحث كالثقافة ، والعادات ، والتقاليد ، والقيم ، ومن ثم سأوضح أثر الأيديولوجية الدينية في الفكر السياسي مستعينا بأهم المصادر والمراجع التي تثري موضوع البحث

خطة البحث :

وقد قسمت البحث إلى مقدمة ، وثلاثة محاور ، وخاتمة ، في المحور الأول تكلمتُ عن الأيديولوجيات ، وتعريفها، وأنواعها ، وخصائصها ، وفي المحور الثاني : ظاهـرة التطرف الديني ودورها في الانقسام الاجتماعي والسياسي ، وفي المحور الثالث : أثــر الأيديولوجية في سياسة المجتمع ، ثم الخاتمة ، والتوصيات

المحور الأول ــ تعريف الأيديولوجيا، وأنواعها ، وخصائصها:

1- تعريف الأيديولوجيا .

معنى الإيديولوجية لغة : لقد ورد تعريف مصطلح الإيديولوجية بنفس المعنى في كثير من المعاجم والقواميس اللغوية كلسان العرب ، والقاموس المحيط، والرائد، والمعجم الوسيط، معجم اللغة العربية المعاصر، فالأيديولوجية ، تعني في اللغة : مجموع الأفكار والمعتقدات خاصة بعصر ما أو مجتمع ، أو طبقة اجتماعية (2) ، وفي أحد القواميس اللغوية الأخرى وردت كلمة إيديولوجيات ، وهي : جمع لكلمة أيديولوجيا ، وتعني مجموعة الآراء ، والأفكار ، والعقائد ، والفلسفات التي يؤمن بها شعب، أو أمة ، أو حزب، أو جماعة (3) .

ومن خلال التعريفين السابقين يمكن القول بأن الأيديولوجيا ، هي : الفكر، أو المذهب ، أو المبدأ ، أي : بمعنى أن الفرد في المجتمع يتمتع بمعرفة فلسفية أو عقائدية عميقة رافضا كل الحلول الوسطية ، أو الاشتراك مع من يختلف معهم في الرأي.

إنَّ هذا المصطلح تناوله كثير من العلماء ، والكتاب ، والباحثين كل من منظور تخصصه ، واهتماماته ؛ ولكن إذا نظرنا إلى المعنى العام لهذا المفهوم ووفق استخدامه الأصلي ، فيمكننا القول بأن كلمة أيديولوجية وفق رأي العالم (دستت دي تريسي Destutt de Tracy 1754 . 1836م) ، تعني : علم الأفكار ، حيث تشير إلى مجموعة من المعتقدات والقيم يتبناها فردا أو جماعة(4) .

والجدير بالذكر أن الأيديولوجية وفـق تفسير أغلب العلماء والمفكرين أنها تعتبر: نسـقاً من الأفكار السياسية ، والخلقية ، والجمالية، والدينية.

ومن خلال اطلاعي على ما أشار إليه العالم (Destutt de) عن مفهوم الأيديولوجيا يمكن القول بأن هذا المفهوم يدلّ على الفلسفة التي تُطرح وفق النظرة الميتافيزيقية ، وتقتصر على دراسة المعاني والظواهر النفسية ، لذا انصرف هذا المصطلح إلى السخرية والتحقير ، فأصبح يدلّ على التحليل الأجوف والمنافسة العقيمة والتفكير الخيالي ، فهي إذن تميــز بصفات متعددة أهمها: أنّها مكان أساسي للاتصال بين ما هو فردي وما هو جماعي ـ وأيضا- تتصف بالبعد الكبير عن التفسير العلمي باعتبارها معيارية وشاملة.

وربما هذا يتطابق مع ما جاء به (ماركس) في تفسيره للأيديولوجية حيث يقول :" إنها جزء من البنية الفوقية ، ومن هنا فهي تعكس العلاقات الاقتصادية ، فقد تكون في نظره علمية عندما تعبّــر عن الطبقات التقدمية الثورية ، وقد تكون غير علمية عندما تعبر عن مصالح طبقات رجعية (5)، وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى قول (نابليون) الذي أطلق مصطلح (الأيديولوجيون) على من كانوا يعارضونه في أطماعه الاستعمارية.

وإذا نظرنا إلى تفسيره للأيديولوجية عند (ماركس) نجده يقول أنها جزء من البنية الفوقية ، ومن هنا فهي تعكس العلاقات الاقتصادية ، فقد تكون في نظره علمية عندما تعبّــر عن الطبقات التقدمية الثورية ، وقد تكون غير علمية عندما تعبّــر عن مصالح طبقات رجعية ، فالأيديولوجية في نظر (ماركس) تتطور وتتغيـر؛ ولكنها تقاوم التغير الجدري والأساسي فـ : (ماركس) هو الذي وضع أسس الإيديولوجية الماركسية ؛ ولكن الآخرين الذين قاموا بتفسيرها ؛ لذلك فإن التغيرات في الأيديولوجية

تحصل ببطء شديد ، وفي الغالب تمـر بمراحل الصراع المركّـز بين التقليديين والمجددين حول الحاجة إلى التغيّرات بغض النظر عن مقاومة التجديدات، فكل الأيديولوجيات تدخل في تطور خاص وتغيرات مرئية وغير مرئية في المجتمع ، فيحدث تغيرا في الأيديولوجية مما يجعلها أكثر تلائما مع الواقع الجديد ، فهذا الأمـر يـؤدّي بالأيديولوجيا إلى تغيير ذاتها(6)

وعلى الرغم من أن مصطلح الإيديولوجية له العديد من الاستخدامات والمفاهيم المتنوعة فإنه يعنـــي : **علم الأفــكار** ، وأكثر ما يستخدم هذا المصطلح يستخدم في علم الاجتماع السياسي ، أما من حيث المنظور الاجتماعي العام ، فهو يعتبر مفهوم محايد ؛ لأنه خليط من مجموعة معتقدات ومفاهيم ، فهو يسعى إلى تفسير كثير مـن الظواهر الاجتماعية المعقّدة من خلال منطق يقوم بتوجيه وبسط الاختيارات السياسية والاجتماعية للأفراد والجماعات ، لذا يمكن القول هنا بأن الإيديولوجية هي : عبارة عن نظام من الأفكار المتشابكة ، كالمعتقدات ، والأساطير التي تؤمن بها مجموعة معينة ، أو مجتمع معين.

2-أنواع الأيديولوجية ، وخصائصها:

الأيديولوجية تتنوع إلى أنواع كثيرة ومتعددة ، منها : العلمية ، والطبيعية ، والفكرية ، والدينية . أما عن الخصائص التي يجب توفرها في الأيديولوجيا ، هي أن تمتلك السلطة على الإدراك ، وتكون لها القدرة في توجيه عملية التقييم عند الفرد والاستطاعة في توفير التوجيه تجاه العمل، فيجب أن تكون متماسكة منطقيا.

الإيديولوجية الدينية :

إن أغلب الباحثين الذين كرسوا اهتماماتهم بدراسة الأيديولوجيات لم يختلفوا في تعريفها من حيث المفهوم العام ، وباعتبار أن الأيديولوجية الدينية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالأيديولوجية السياسية والاجتماعية وغيرهما ، فهي تكتسب صفات متصلة بكل تحيـزّ إيديولوجي سواء أكان دينياً، أو فلسفياً ، والغرض من ذلك التحيـّز من أجل تحقيق أهداف سياسية ، على الرغم من أن كل الأديان لـو نظرنا إليها من زاوية غير متعصبة نجد أنها تنبذ خدمة المصالح الشخصية باسم الدين ، فهي ليست من صلبه ، فكل الأديان السماوية في أصلها لا علاقة لها بالإيديولوجية السياسية ؛ ولكن استغل بعض ضعاف النفوس تفسيرات تلك النصوص لخدمة مآربهم الخاصة ، ولخدمة جماعات بعينها تسعى بدورها للاستحواذ على السلطة والحكم باسم الدين، فهذه القـوى

لها أجندتها وأفكارها ، فهي تحمل فكرا إيديولوجيا سياسيا من وصولها للسلطة ، وبقائها فيها باسم الدين.

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى بعض الذين لهم إسهامات في علم الاجتماع والسياسة مثل (كارل ماركس) ، و (فيبر) ، و(دور كهايم) الذين رسموا جانبا مهماً من الملامح والخصائص العامة للدّين حيث نجد ذلك واضحا في كتاباتهم وآرائهم حيث أن كل واحد منهم يعد مكملا للآخر من عدة جوانب فــ : (ماركس) أعتقد أن للدّين بعداً أيديولوجيا يخدم مصالح الفئات الحاكمة ، ويبرر سلوكها على حساب الآخرين ، أما (دور كهايم) فقد شدّد على أهميّة القيــم الدينية ، وما يرتبط بها من شعائر احتفالية في تعزيز التضامن والتماسك بين أفراد المجتمع ، فالمفاهيم التي طرحها (دور كهايم) حول دور الدّين يمكن استخدامها في دراسة دور الدّين داخليا مثلما يقوم بدور فاعل في تأليب جماعة ضد جماعة أخرى ، ومن خلال ما طرحــه (دور كهايم) من أفكار وتصورات نظـرية عن دور الممارسات الشعائرية في حشد مشاعر النّاس في جوانب الحياة النفسية ، والاجتماعية ، والدينية ، والسياسية نجد أنه يختلف عن (كارل ماركس) على الرغم من أن كل واحد منهما يعد مكملا للآخر من حيث كتاباته وآراؤه، إلاّ أن وجه الاختلاف بينهما هو أن (دور كهايم) يبــرز في كتاباته البحثية دراسة الدّين مع التركيز بصورة خاصة على الاعتقاد الديني في المجتمعات التقليدية الصغيرة ، وهذا واضح من مؤلفه المسمى : (**الأشكـال الأولية للحياة الدينية**) ، فمن خلال ما كتبه نلاحظ أنه لا يربط بالتفاوت الاجتماعي، أو السلطة ؛ بل يدرس علاقته بطبيعة المؤسسات الاجتماعية .(Durkhim.firstpub)

أما عن العلم الألمــاني (ماكس فيبر-1864 – 1920م) يتضح تشدّده في معالجته لقضايا الاسلامية وهذا واضح من خلال كتابه **: (علم اجتماع الدين)** على عكس معالجته للعلاقة بين القيم والأخلاق البروتستانتية ، ونشأة الرأسمالية في أوربا على الصلة الوثيقة بين الدين خاصة الدين الإسلامي والسلوك اليومي الهادف ذو المضمون الاقتصادي.

إن (ماكس فيبر) اعتبر القيم والمعتقدات الإسلامية جاء متناسقة من حيث المعالجات المادية للطبقة المحاربة ، فبعبارة أوضح اعتبر(ماكس فيبر) الإسلام زواج بين التجارية ، والقيم الفروسية، والقيم الصوفية المعبرة عن عواطف الجماهير، ونتيجة هذه المزاوجة الثلاثية ، وجهت الطبقة المحاربة الإسلام باتجاه الجهاد .

لقد أسهمت هذه القيم التقليدية باستمرار في نزعة الولاء القبلي الأبـوي لشخص السلطان ، وليس للمؤسسات والسلطة الإسلامية الجديدة ، وهو ما اسماه (فيبر) مصطلح الولاء والطاعة لسلطان الحاكم(7) .

المحور الثاني ــ ظاهـرة التطرف الديني ودورها في الانقسام الاجتماعي والسياسي:

إن الأيديولوجية الدينية السياسية لا تبحث عن سلطة الدين على الأرض والدفاع عنه ؛ بل تبحث عن سلطتها باسم الدين وتدافع عن مصالحها الأرضية، وما استغلال الوعي الديني الشعبي لتحويله إلى وعي أيديولوجي سياسي إلا تشويه للوظيفة الروحية الأخلاقية للدّين

1- ظاهرة التطرف في الدين اليهودي:

لم يخــل أي دين من الأديان السماوية من ظواهر التّطرف ، فقد استغلت تلك الأديان لأغراض سياسية الهدف منها الاستيلاء على السلطة ، فأحبار اليهود مثلا استغلوا من قبل أطراف عنصرية حاقدة حرفت كل ما جاء في التوراة ، وخرجت عن أصول الدين اليهودي، فكل الروايات التي ذكرها أغلب الكتاب اليهود المتطرفين كانت متناقضة ، ومخالفة لما جاءت به الأسفار والكتب المقدسة.

فاليهود المتطرفون لم يلتزموا بما جاء في التوراة التي جاء بها النبي موسى -عليه السلام- ، فحرفوا محتواها الصحيح ، وسخروها لتحقيق أهدافهم السياسية ، والطائفية ، والعنصرية ، وبهذا التطرف خلقوا الفتنة بين الشعوب والمجتمعات ، فأصبح الصراع السياسي بين اليهود أنفسهم، ففي هذا الصدد يقول الله- تعالى- : **(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)** (8)

شَبَهُ اليهود الذين كُلِّفوا العمل بالتوراة ثم لم يعملوا بها, كشَبه الحمار الذي يحمل كتبًا لا يدري ما فيها, قَبُحَ مَثَلُ القوم الذين كذَّبوا بآيات الله, ولم ينتفعوا بها, والله لا يوفِّق القوم الظالمين الذين يتجاوزون حدوده, ويخرجون عن طاعته.

ويحاول اليهود تربية الموطن الإسرائيلي على كــره الإنسان المسلم ، والمسيحي، والواقع الملموس يبرهن على ذلك من خلال أفعال اليهود المتطرفة في فلسطين المحتلة ، فالأفكار التي يعتنقونها منافية تماما لما جاء في نصوص الأسفار سواء أكان سفر التكوين، أو سفر الخروج.

إن كل ما تناوله الكتاب والباحثون من الأمم الأخرى في كتاباتهم حول الثقافة اليهودية التي يحملها المتطرفون اليهود تشير إلى أن التطرف والتشدد في الثقافة اليهودية يحمل عناصر الأنانية والعنصرية ، وهذا واضح في ثقافة الكيان الصهيوني والإسرائيلي التي توضح حقدهم على الأمم الأخرى ، وخاصة الأمة الإسلامية.

2- **ظاهرة التطرف في الدين المسيحي** :

لقد انحرفت بعض الجماعات الدينية المسيحية المتطرفة عن أهداف الدين المسيحي ، ففسرت مبادئه وتعاليمه وفق مصالحها السياسية ، فجاءت بفكر مغاير لما يدعو إليه، وهكذا رأينا أن تاريخ الدين المسيحي مليء بالصراعات والمنازعات الباردة والساخنة بين مختلف الطوائف المسيحية وغيرها ، على الرغم من أن الكنيسة البابوية تمكنت ومنذ وقت مبكر من فرض نوع من الانسجام والاستقرار في عموم أوربا المسيحية ؛ ولكن لم تخل من استخدام شتى ضروب القهر الديني ، والفكري.

ولكن منذ ظهور الحركة البروتستانتية في الشمال الأوربـــي وامتدادها نحو الوسط ، والتي أدّت إلى قيام حروب دينية بين الكاثوليك ، ولم تستطع الكنيسة الكاثوليكية استعادة وحدة المسيحية البابوية ؛ إذ طغى الانقسام الطائفي على جميع المستويات ، وقامت الحركة الإصلاحية البروتستانتية بوضع أسس الفصل بين الكنيسة والدولة ، وأخضعت الكنيسة لسيادة الدولة , ومن أعماق هذه الأزمة الواسعة بدأت تتخلق بذور التعايش بين مختلف الطوائف المسيحية , ومن مســاوئ هذه الحروب الدامية بدأت تتبلور مقولة التسامح الديني ، أي: فكرة التعايش السلمي مع حالة التعدد الديني ، والتنوع الطائفي , وقد اقتضى ذلك جهدا كبيرا في إعادة تأويل مصادر التفكير المسيحي ليتطوّر مفهوم العلمانية على حساب الاستبداد باسم الدّين ، فتم بذلك الدخول في مرحلة جديدة من أسلوب الحكم عبر التداول السلمي للسلطة ، وممارسة الأسلوب الديمقراطي في السياسة , والأسلوب الليبرالي في الاقتصاد , ويكاد يتجه العالم بأكمله - في الوقت الحالي - إلى تبني تلك الأفكار ما عدا المتضررين منها خاصة الأنظمة الاستبدادية باسم الأيديولوجيات.

3- **ظاهرة التطرف في الدّين الإسلامي:**

يقوم مبدأ الإســلام السياسي على أن الإنسان قاصر عن تدبير شؤونه الدنيوية دون معونة إلهية سواء كانت هذه الشؤون سياسية ، كتقرير شكل الدولة ، ونظامها ، وإدارتها , أو اقتصادية ، أو اجتماعية .

وقد اختلف الكتاب والباحثون- الذين تناولوا في كتاباتهم هذه الظاهرة- حول المرجعية لظاهرة التطرف الديني الإسلامي ، فمنهم من ردّها إلى الخوارج، ومنهم من ردها إلى غُـــــلاة الشيعة.

والواقع أن كل الجماعات المتطرفة والتي تسترت بالدّين الإسلامي وجعلت منه غطاء لتحقيق أهدافها السياسية ، تعتقد أن أفكارها ورؤيتها مستمدة من القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وهي تتبع آراء وأفكار بعض علمائها وزعمائها الذين وظّفوا بعض نصوص الدّين لخدمة مصالحهم الشخصية ، والسياسية ، ففسروا آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، وأولوها وفق اتجاهاتهم ورؤاهم وسياستهم ، وبذلك تعددت المذاهب ، والملل ، والطوائف ، فاختل التوازن الاجتماعي ، والثقافي ، فكثرت النزاعات والصراعات داخل المجتمع المسلم الواحد ، بسبب تعدد الطوائف الدينية المتطرفة ، ونحن نعلم أن الدّين الإسلامي في بداية ظهوره وخاصة عهد الخلفاء الرشدين لم يسخر الدين في السياسة ، فلم تكن للخلفاء الراشدين امتيازات سياسية خاصة .

ولكن إذا نظرنا إلى بعض الطوائف الشيعية نجدها تسترت بأغراضها الشعوبية، والسياسية ، فتصنعت بكاء على الحسين بن علي – رضي الله عنه - ، وتظاهرت بمحبة أهــل البيت ، وهي في أساسها تهدف إلى مآرب شعوبية ضد العرب ، وتوجهاتها السياسية (9)

وفي هذا السياق يمكننا القول بأنّ كل تلك الجماعات الطائفية ، أو المتطرفة التي ظهرت في التاريخ المعاصر ظهرت من خلال انتشار ثقافة الاستعمار الذي احتل المجتمع العربي الإسلامي .

وسخّر المستشرقون جهودهم لطمس هوية اللغة العربية ، وتشويه الدين الإسلامي، فالاستعمار وظّف العملاء ، وأصحاب المصالح الشخصية ، والأطماع السياسية في تفكك وانقسام العرب والمسلمين ، وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى أن الدولة العثمانية التي سيطرت على أغلب المجتمع العربي ، ولمدة طويلة بعد انهيار الخلافة العباسية ، وانهيار الحكم الفاطمي في مصر سنة568هـ -1102م ، وحرق بغداد سنة 656هـ -1258م على يد المغول ، حيث ظهرت في عهد هذه الإمبراطورية التي جاءت باسم الإسلام أمارات التفكك والانفصال في أغلب ولاياتها البعيدة ، مثل الجزيرة العربية التي قامت فيها الحركة الوهابية التي انتشرت في منطقة الحجاز سنة 1740م كما ظهرت دولة محمد علي باشا في مصر بعد قضائه على

المماليك سنة 1811م ، ونجح في إخضاع الوهابيين للسلطة العثمانية ، وقيام دولة الشهابيين المسحيين في جبل لبنان سنة 1694م(10).

وهكذا كانت السلطة الحاكمة في المنطقة العربية هي سلطة العثمانيين، ومحمد على في مصر ، والقوى الاستعمارية في بعض المناطق كلبنان، ولا يخفى أن لهذه القوى المتواجدة على الرقعة الجغرافية العربية المسلمة لها أجندتها ، فكلٌ منها يحمل فكرا أيديولوجيا سياسيا تضمن له بقائه في السلطة باسم الإســلام أطــول فترة ممكنة.

وقد انتشرت في التاريخ المعاصر تيارات إسلامية تحمـل أفكاراً متطرفة بمسميات مختلفة ومتعددة ، وقد لعبت هذه التيارات دورا أساسيا في الفكر السياسي المعاصر ، وما زالت تلعب دورا سياسيا بارزاً ومؤثراً في بعض القوى السياسية التي تسعى حثيثا لانتزاع السلطة ، سواء أكان ذلك على المدى القريب المنظور ظاهرة وواضحة يدركها كل حصيف ، أو أحيانا تكون على المدى البعيد خفي ، واللافت أنها حملت أسماء متعددة ، ومختلفة ؛ لكنها اتفقت جميعها على تبنيها فكرا متطرفا له أبعادٌ سياسية ، أدّت إلى آثار اجتماعية ، واقتصادية ، وسياسية خاصة في العالم العربي، والإسلامي.

وإذا نظرنا إلى المبادئ التي جاءت بها الأديان السماوية نجدها في أساسها تدعو إلى العدالة و الترابط والتسامح بين الناس ، ولكن ما تفرع عنها من مذاهب وطرق أدّى إلى التفكك الاجتماعي، والسياسي ، فالدين في حد ذاته مستقل عن الأيديولوجية السياسية ، ولا سيما الدين الإسلامي فهو لا يقبل التهاون أو التساهل مع من يعبثون بمصلحة المجتمع ؛ لأنه يهدف إلى المساواة بين الناس ، والترابط الاجتماعي بينهم ، فالعدالة الاجتماعية من الأهداف الأساسية في الدّين الإسلامي ، لذا فإن هذا الدّين الاسلامي يأمـر أتباعه بالوقوف ضد من يسعون لتخريب المجتمعات ، والعبث بمصالحها.

ولا شك بأنّ الدّين له دور بارز في تغيير الـرأي العام عندما تُطبق تعاليمه الصحيحة ، فلا يمكن الجزم بأن يكون الرأي العام مقياسا للحق إذا خالف القيم والأخلاق المتعارف عليها لـدى المجتمعات الإنسانية ، والتي تتمشى وفق المفاهيم الحضارية والثقافية ، فلا قيمة له ، ولو توافقت الآراء ، فالبشر خطاؤون وتتحكم في آرائهم ومواقفهم ظروف كثيرة ، منها: الذاتية، والاجتماعية ، والسياسية.

وفي هذا السياق فإن الباحث يـرى أن وظيفة الرأي العام تُحدّد من خلال النظام السياسي، فالفكرة العامة التي توضح دور الرأي العام ووظيفته في أي نظام سياسي معين تعتمد على الاتجاه السائد لدى الناس، وفكرة الرأي السياسي هي التعبير المختصر عن العلاقات السائدة بين عمليات تكوين الرأي ، وصياغة السياسة في المجتمع (11)، فتحديد النظام السياسي في أي مجتمع لا يكون وفق آراء جماعات تتستر بالإســلام ، وتسعى للوصول إلى سدة الحكم ، وتحقيق المآرب والمصالح الشخصية ؛ بل بتطبيق مبادئ الدين السمحة التي تدعو لإصلاح المجتمع بقيم سامية ، وأفكار نيّــرة نبيلة ، يقول الله- تعالى - في كتابه العزيز (**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**) (12) .

فكل الأيديولوجيات الدينية التي تتميز بالتطرف وجد لها أثـر في الحياة السياسية، وذلك من خلال الاستقصاء والتتبع ، وهي التي تسبب الصراع بين المجتمعات ، فأصحاب تلك الأيديولوجيات المتطرفة ، وظفت النصوص الدينية لتخدم مصالحهم السياسية ، وإذا نظرنا إلى الأيديولوجية السياسية وفق ما جاء في أغلب الدراسات الاجتماعية ، فيمكن القول بأنها مجموعة معينة من المبادئ ، والأخلاق ، والعقائد التي تحكم الحــركة الاجتماعية , وتهتم الأيديولوجيا السياسية القائمة على المفاهيم الدينية بكيفية تقسيم القوة ثم إلى أي مدى يمكن استخدامها.

المحور الثالث ــ أثــر الأيديولوجية في سياسة المجتمع :

إن الفرد الواعي والمثقف لأصــول الأيديولوجية يدرك تماما بأنها مرتبطة بالنظم السياسية ، حيث إن أي نظام سياسي مهما كان نوعه أو شكله لا يمكن أن ينفصل عن فكر إيديولوجي ، فهو يعيش بها ولها ، فالمتتبع لنشأة الأيديولوجيا ، يستطيع أن يلمس بسهولة كيفية الموضوعات التي تناولتها، أو تطرقت إليها كانت كلها سياسية ، وكل ما حدث بها من تطورات كان للسياسة فيه النصيب الأكبر، فسياسة أغلب الدول كانت تدار تبعا للمذاهب ، والمعتقدات التي تؤمـن بها ، فالمذاهب والمعتقدات تعد أساسا في شؤون الحكم ونظرياته ، فالأيديولوجية ذات صلة بالنظام السياسي مثلا كالأيديولوجية الشيوعية، أو البينينية ، والصهيونية ، وغيرها .

وقد ازداد الاهتمام بالإيديولوجية بصورة واضحة في النصف الثاني من القـرن العشرين كنظرية ، ومنهج رغم أن الصلة بين الإيديولوجية ، والمجالات السياسية ،

والاجتماعية قديمة ، فهي ليست وليدة العصر ، ولا تزال بنفس قوتها حتى وقتنا الحاضر.(12).

والذي يجذر ذكره هنا أن القيم والتقاليد لأي مجتمع تلعب دورا بارزا في تحديد الاتجاه الذي يسير في النسق الأيديولوجي وطبيعة النظم وبناء علاقات المجتمع ، ومن ثم يتم صبغ الهيئة التي تظهر بها أمام الجميع ، أمّا عن النسق السياسي فيعد من أكثر الأنســاق المتداخلة في النسق الإيديولوجي في المجتمع ، فأهمية الأيديولوجيات السياسية فيما تقدمه من معلومات عن الجماعات والشعوب الأخرى وكيفية الإدارة واتخاذ القرار واختيار النواب والممثلين والحكام وموقفهم من الواقع القائم وجوانب الضعف والقوة في تلك النظم والإدارات أو لدى تلك الجماعات وكيفية النفاذ إليها وزعزعتها.

وفي نفس السياق أن الأيديولوجية السياسية هي مجموعة معينة من المبادئ والأخلاق والعقائد التي تحكم الحركة الاجتماعية .

ولهذا فإن فصل الدين عن السياسة هو حرمان أهل المصالح من تحويل الدين إلى أيديولوجيا، وإلى أي نوع من أنواع الأصوليات القاتلة، وحمايته من النزعات التعصبية، والاحتفاظ بطابعه الإنساني الأخلاقي ووظيفته الخيرية في الحياة المجتمعية؛ بل إن حماية الحياة الروحية للمجتمع، فالدين، هو الحياة ، والحياة لا تتم إلا بحماية الدين من الأيدي12ولوجيا الدينية السياسية، ومن الخطاب الذي يبحث عن السلطة باسم الدين.

إن الأيديولوجية الدينية السياسية لا تبحث عن سلطة الدين على الأرض والدفاع عنه، بل تبحث عن سلطتها باسم الدين وتدافع عن مصالحها الآنية ، فاستغلت الوعي الديني الشعبي لتحويله إلى وعــي أيديولوجي سياسي فشوّهت بذلك الوظيفة الروحية والأخلاقية للدّين.

الخاتمة :

من خلال تناولي لموضوع هذا البحث عن أثــر الإيديولوجية الدينية في الفكر السياسي- الذي تتبعت في كتابته المنهج الوصفي التحليلي في شرح مفاهيمها ، والتعرف على أبعادها ، وأثرها في الحياة الثقافية ، والقيم الاجتماعية ، ودور التغير والتبدل في نهجها القيمي، والاجتماعي ، وما صاحبها من غزو ثقافي قد يكون له

أثــر فعال ومباشر في تغير المفاهيم والقيم الإنسانية لدى العديد من المجتمعات البشرية ، ومن خلال ما ذكر توصلت إلى مجموعة من النتائج، وهي :

النتائج :

1- إن الأسس والمبادئ التي جاءت بها الأديان تدعوا إلى ترابط |أفراد المجمع وتهذيب سلوكهم.
2- لم تكن تعاليم الأديان السماوية سببا في صراع الشعوب بل تدعوا إلى التسامح وتحث وعلى المحبة بين الناس.
3- ازداد اهتمام العلماء بالإيديولوجية بعد تأكيدهم على أهميتها في المجال السياسي والاجتماعي وأثرها في الحياة الثقافية.
4- الأيديولوجية وظيفة نزعية ؛ لأنها تدفع أعضائها إلى اتجاهات سلوكية وتزويدهم بأهداف وغايات معينة.
5- إن لكل فرد إيديولوجية فكرية خاصة بمعنى أن الإيديولوجية هي أسلوب حياة.
6- اختلاط مفهوم التغير بالأيديولوجيات باعتبارها تمتاز بالمرونة ، وهي النسق الكلي للأفكار.
7- إن أصحـــاب الأيديولوجيات المتطرفة يستخدمـــون الدّين لأغراضهم الشخصيـــة ولأهدافهـــــــم السياسية.
8- أغلب الجماعات المتطرفة دينيا عاشت وترعرعت خارج أوطانها الأصلية ، فاستمدت بأفكار وأيديولوجيات منافية لتعاليم الأديان الصحيحة ، وهدفها سياسي أكثر ما هو ديني بثقافة .

التوصيات :

يوصي الباحث بالآتي:

1- اهتمام أهل العلم ، والمعرفة، والثقافة ، بتوعية أفراد المجتمع بمبادئ الأديان السماوية الصحيحة.
2- يوصي الباحث باستخدام مفهوم الإيديولوجية بما يتمشى مع مصالح المجتمع.
3- عدم تسخير الإيديولوجية الدينية لخدمة فئة أو طبقة معينة على حساب باقي أفراد المجتمع.
4- الاهتمام بالبحث العلمي والتوعية الثقافية التي تسهم في تقدم وتطور المجتمع وتعالج الظواهر الهدامة التي تواجهه.

5- قيام أساتذة علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية والعلوم السياسية بدورهم الذي يهدف إلى بناء مجتمع مبني على مؤسسات تخلق التطور والتقدم والاستقرار.

6- قيام المؤسسات التعليمية بدورها التعليمي والتربوي لتأهيل عناصر لا تخترقها الأفكار التعصبية والعنصرية والطائفية.

7- على عاتق سائل الإعلام مهمة كبيرة ومسؤولية جسيمة وهي على توعية الشباب ، وغرس في أذهانهم روح الوطنية قبل الانتماء لأي فكر سياسي ، أوديني.

قائمة الهوامش:

1- سورة الشــورى، الآية: 38.
2- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية، باب الألف. مكتبة الشروق الدولية ، باب الألف
3- عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصر ، مج1 ، منشورات عالم الكتب، (القاهرة:2008م)
4- رتش تدهوند، ترجمة : نجيب الحصادي، دليل اكسفورد للفلسفة ع 1 المكتب الوطني للبحث والتطوير ص 28، 129(طرابلس 2005م، ص: 28.
5- وهبة مراد، المعجم الفلسفي، معجم المصطلحات الفلسفية ، دار قبا للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة: فبراير1998م. ص: 126.
6- أنظر: وهبة مراد، المعجم الفلسفي، معجم المصطلحات الفلسفية ، ص: 126.
7- غندر أنتوني، غندر انتوني، علم الاجتماع ، ترجمة وتقديم فايز الصباغ،ع1 مركز دراسات الوحدة العربية، ص2005،584م، ص: 584.
8- سورة الجمعة ، الآية : 5.
9- العلوي هادي، خلاصة في السياسة والفكر السياسي في الإسلام،ع4 دار المدى للثقافة والنشر ، دمشق:2004م. ص: 222.
10- المراكشي محمد ، الإيديولوجية والحداثة عند رواد الفكر السلفي، دار المعارف للطباعة والنشر، صفاقس 1992م .ص39
11- - Leiserson,Avery.1988 Vol.8. .
12- سورة النساء الاية113 .
13- أنظر: محمد فضل الله 2005م، ص: 45